مجلة "منبر التراث الأثري"
ISSN: 2335-1500, EISSN: 2602-7267

المجلد: 05؛ العدد: 01؛ 2016
ص11 -26

مقاربة إثنو-أثارية لمساكن بناة المدافن الميغاليثية

د.مراد زرارقة (جامعة قالمة)

ملخّص:

في الماضي، تمحورت الأبحاث الأثرية بشأن الفترة ما قبل البونية والرومانية على دراسة الأضرحة والمدافن الميغاليثية، وكأن سكان شمال أفريقيا في العصور التاريخية الأولى عاشوا من أجل الاهتمام بالحياة الدينية والجنائزية. هذا ما يستدعي إعادة النظر في أساليب البحث برؤية موضوعية تستلزم القيام بأعمال وإجراء بحوث تسلّط الضوء على النمط المعيشي للسكّان المحليون بناة المعالم الجنائزية الميغاليثية وشبه الميغاليثية بالشرق الجزائري خصوصا وبشمال إفريقيا عموما. وسوف نبرز في هذا المقال بعض الخصائص والمميّزات للهيئات السكنية لهذه المجتمعات بالاعتماد على بعض المخلّفات المادية وبمقاربة إثنو-أثارية، مشغّلين في ذلك أثر الوسط الطبيعي من معطيات طوبوغرافية في استغلال مواد البناء والاحتماء بالتضاريس المنيعة.

Abstract :

The researchers were interested in the remains and vestiges of the pre-Roman era in the area of funerary monuments. For the Libyan-Punic period, their work focused mainly on the study of mausoleums and shrines, as if the inhabitants of North Africa at the beginning of historical times lived only to look after the religious and funerary life. Today a reexamination of the lifestyle of the local population is in prospect, in order to highlight the remains of habitats that built near megalithic necropolis large tracts of which I have seen traces around major sites of the East Algeria. We will show in this article, the topographic characteristics and the choice of ground considered as primordial for a defensive construction, with a typically local architecture.

مقدمة:

اهتم الباحثون الدارسون لآثار ومخلّفات الحقبة ما قبل البونية والرومانية بالمعالم والأنصاب والشواهد الجنائزية بأنواعها، وكان اهتمامهم أكثر بتسليط الضوء على كل ما يرجع للفترة اللّيبية والنوميدية حتى وإن كانت متأخّرة مثل الأضرحة التي تلقت اهتماما كبيرا، وكأنّ السكّان المحلّيون في بداية العصور التاريخية استقرّوا في ربوع شمال إفريقيا بغرض الاهتمام بالحياة الأخرى فقط.

والتساؤل المطروح اليوم يقتضي إعادة النظر في هذه المسألة بمنظور علمي يعتمد على إجراء تحرّيات وملاحظات ميدانية لمعرفة مختلف البقايا والمخلّفات الأثرية المحيطة بالمعالم الجنائزية وتحليلها تحليلا موضوعيا وبمنظور منطقي يتجلّى في محاولة فهم سبب اقتصار العمارة ما قبل البونية والرومانية على المعالم الجنائزية، وكأنّ القبائل المغاربية القديمة كانت تسكن في الهواء الطلق أو بداخل المغارات. فكان للمنظور الثاني سببا في معالجة مسألة السكن في هذا المقال، ممّا دفعنا بتشغيل الأوضاع السياسية التي كانت سائدة في بداية العصور التاريخية وما اكتنفته من اضطرابات وصراعات بين النوميديين والرومان من جهة وبين النوميديين في حدّ ذاتهم كالماسيل والماسسيل من جهة أخرى، وقد تكون حتى ما بين مختلف القبائل والعشائر والعائلات المحلية فيما بينها بصفة عامّة. فيكون لهذه الأوضاع تأثيرات على نمط معيشة السكّان وعلى اختيار أماكن بناء سكناتهم تحت هذا الوضع المضطرب في شكل مجموعات تكون في غالبية الأمر محصّنة طبيعيا وقد تكون تحتوي على أسوار مدعّمة بأبراج في منظومات على شكل قلاع دفاعية منيعة، كما قد تكون معدومة هذه العناصر مكتفية بالتحصين الطبيعي المنيع يحتمي من فوقه لأوقات قصيرة.

قبل الشروع في ذكر أهم خصائص ومميزات السكن التي أقامها القدامى والتي قد تكون ذات صلة بالمعالم الجنائزية المنتشرة في نطاقها الجغرافي. أودّ أن أثمّن رؤية قزيل Gsell S. بخصوص هذا الموضوع التي تعدّ الأقرب للواقع الذي صادفناه خلال دراستنا الميدانية للعديد من الهيئات غير المدروسة أو المشار إليها وتبقى مجرد اكتشافات جديدة، وهي ذات صلة بالمعالم الجنائزية الميغاليثية وشبه الميغاليثية المنتشرة بمقربة منها أو تتخلّل أرجائها المباشرة، على العكس المطلق بما صرّح به كامبس Camps G. لمّا قال بأنّ في غالبية الأحيان، تنتشر المعالم الجنائزية الميغاليثية بعيدا عن أيّة مدينة بالجزائر على عكس ما هي عليه في تونس، أين تكون مجاورة للبلدات النوميدية القديمة.

وقبل الخوض في ذكر ووصف خصائص ومميزات هذه المنشآت والهيئات السكنية من البسيطة والمعزولة منها إلى تلك المعقدة والمجمّعة داخل نظام دفاعي محكم، أودّ أن أعطي فكرة ولو بسيطة على مأوى الأحياء للفترات التي سبقت بقليل أو تزامنت مع نشأة المعالم الجنائزية الميغاليثية والشبه ميغاليثية. وبهذا الخصوص سوف نعتمد بدرجة هامّة على المصادر القديمة التي وصفت أو ذكرت مختلف أنماط وأنواع هذه المساكن، كما سوف أعتمد على وجهة نظر قزال وبعض الباحثين بخصوص هذه المسألة.

لقد تبيّن من خلال الأبحاث أنّ قضيّة استقرار الشعوب القديمة بشمال إفريقيا قد تمّ بشكل واضح منذ الفترات المتأخّرة لعصر ما قبل التاريخ، ليتعمّم ويتطوّر خلال العصر الحجري الحديث بما اقتضته حتميّة ذلك بعامل استئناس الحيوانات وممارسة الزراعة، ليتعمّق هذا الاستقرار على هيئة مجموعات سكّانية معتبرة العدد تتزامن بما يمكن تسميته بحضارة أو ثقافة المباني الجنائزية الميغاليثية التي تنتشر بشكل ملفت للانتباه في الشرق الجزائري والجهة الشمالية الغربية من القطر التونسي بصفة عامة على شكل مقابر مركّزة تعدّ بالآلاف في مناطق معيّنة تارة ومتفرّقة تارة أخرى بأعداد متوسّطة وقليلة في نواحي ومناطق أخرى.

هذا الانتشار الواسع في شكل مجموعات، لا يمكن أن يفسّر سوى باستقرار شعوب هذه المواطن استقرارا كاملا بمحيط وبمقربة من معالمهم الجنائزية يستلزم بناء مساكن تأويهم في هيئة مشاتي ومداشر وقرى وحتّى مدنا، كل منها تتماشى وكثافة عدد المعالم الجنائزية. وحتما ينجرّ عن هذا الاستقرار ممارسة الفلاحة والزراعة وتربية المواشي بشكل واسع حيث مازالت المخلّفات المادية للنشاط الزراعي واستغلال المياه كبناء الحواجز المائية، بارزة في ربوع المدافن والمقابر الميغاليثية.

فعرفت المنشئات والهيئات السكنيـة بشمال إفريقيا من قبل، وخاصة تلك التي تـرجع إلى الفترات ما قبل الرومانية، بكونها هيئـات طبيعيـة محضة كالمغارات والكهوف وأخرى مهيّأة بإدخال بعض التعديلات الطفيفـة على صبغتها الجلموديـة أو تضاف لها بعض المرافق والعناصر العضويـة كالخشب والجلود التي لا نجد لها أثر مرئي ضمن المخلفات الأثرية خلال الدراسات الميدانية والحفريات، مثلها مثل الهيئات الهشّة والخفيفة، المصنوعة من مواد عضوية التي تتميّز ببساطة هياكلها كالخيام والأكواخ المتنقّلة والثابتة وأخرى صلبة مبنيّة بالحجارة، غالبا ما تكون محصّنة إذا ما كانت بالقرب من المقابر الكبرى ونجد أنواعها كما يلي:

1 - المساكن الطبيعية:

ونحصرها في المغارات والكهوف والملاجئ، فحسب الكتّاب الإغريق واللاتينيين، فكان هناك أقوام وجدوا

ديما يعرفون بسكّان المغاور Troglodytes التي كانت متربّعة بالقرب من الصحراء والصحراء نفسها، ومتواجدة حتى في بلاد البربر.

هذا النمط السكني بقي متداولا إلى غاية فترات جد متأخّرة أين عرفت وبقيت مستغلّة ومستعملة من طرف السكّان خلال القرن العشرين في كل من تونس، الجزائر، المغرب الأقصى وجزر الكناري. أين نجد في بداية العصور الوسطى إحدى القبائل التي تسكن مجموعتها الكبرى ناحية تلمسان، تسمّى باسم بني إفرن (يفرن) ولا شك أن اسمها مشتق من الاسم البربري إفري Ifri أي المغارة. ويضيف قزال بأن هؤلاء الأفارقة أو أجدادهم على الأقل كانوا إذن يسكنون المغارات. كما كان يسكنها جل الغوانش Guanches قبل الاستيلاء الأوروبي على جزر الكناري.

حتى وقت ليس ببعيد يذكر سيناك Seneque حسب قزال بوجود سكان المغارات بمنطقة طرابلس وفي جنوب القطر التونسي وكذلك في الأوراس وفي الغرب الجزائري وبالمغرب الأقصى.

والبعض الأخر منهم حفروا مساكنهم في صخور الطوفة Tuf، كما تكون المساكن في باطن الأرض تارة، وأحيانا تكون على صيغة حجرات مقامة على وجه الأرض خلف الجدار الصخري ينزل عليها عموديا أو ينحني قليلا، وهذا بفضل تكوينه الطبيعي الذي هو عبارة عن جرف أو بروزات، وأحيانا فإن الكهوف الطبيعية أو المهيّئة بيد الإنسان تتراكب على جانبي رأس أحد الجبال أو أحد النتوءات الصخرية التي يمكن استخدام قمتها كملجأ.

ويضيف قزال بأن قوّة العادات هي التي سمحت باستمرار هذا النمط من السكنات في بعض المناطق، وكذلك بسبب الفوائد التي يقدمها للناس الذين هم في أغلب الأحوال من البؤساء، فهو سكن لا يستوجب عناية ولا يخشى النار، كما لا يخشى على العموم غيرها من أخطار التهديم، ويسهل به الدفاع ضد ذوي النوايا السيئة، وضد الوحوش، كما أنه ملجأ آمن ضد رداءة الأحوال الطبيعية، فهو لائق صيفا ودافئ شتاءا. غير أن هذه الجحور ينقصها الهواء والنور وغالبا ما تكون بها رطوبة مضرّة وتعجّ بالبكتيريا والجراثيم.

2 - المساكن العضوية:

وهي مبنية بمواد عضوية مشتقّة كليا من منتوجات ما توفره الطبيعة، وعادة ما تستعمل فيها نوعيات معيّنة من النباتات أو من مشتقات ما توفره الحيوانات من جلود وصوف ووبر، ويشغّل في بناء أو انتصاب الأكواخ والخيم العنصرين معا (النباتي والحيواني). وعن انتشار وتوزيع هذه الأنماط، فيرى قزال بأنّه مرتبط بنمط معيشة مختلف القبائل والعائلات البربرية التي كانت أثناء القرون الأولى للميلاد يمارسون تربية الماشية، وكان الذين بالتل يسكنون أراضي متوفّرة بصفة جيّدة على الكلأ والمراعي والماء، يمكنهم أن يعيشوا حياة وكأنّها حياة الحضر.

وإذا فرض الجفاف عليهم أن يذهبوا بعيدا لقضاء الصيف، فلم يكن نادرا أن يقيموا طويلا بالمكان الذي اختاروه. لكن ماشيتهم كانت هي ثروتهم الوحيدة، فقد كان لابد لهم أن يكونوا على استعداد لإنقاذها بالهروب بها من هجمات الناهبين، (خوف استمر وأثّر على المبيت بالأكواخ برفقة الحيوانات) وكأن هذا الخوف يدفعهم لتفضيل الملاجئ المتنقلة على المساكن الثابتة. والرعاة الذين يقيمون بالبراري في فصل الشتاء، كانوا مرغمين على التنقّل بها كثيرا، حتى إذا جاء الصيف فإنهم يتنقلون في هجرات طويلة إلى التل أو إلى جبال الجنوب. وكان لابد لهم أن يحملوا معهم مساكنهم، إذ لم يكن لهم لا الوقت ولا الوسائل المعتادة لإقامة مسكن في كل مرحلة نزول.

قد يكون الأمر في الوقت الحالي مختلف قليلا، كون الرحّل في شمال إفريقيا يأوون إلى خيام متفاوتة في الحجم، تجمع فيها شرائط طويلة منسوجة من الصوف أو من وبر الجمال وشعر الماعز. هذه الخيام كانت تحمل مع بعض الأعمدة والأوتاد على ظهور الدواب كما أنها تقام وتفك في وقت قصير، وإذا تجمّعت على شكل دائرة (هذا هو المعنى العربي للفظ الدوّار) فإنّها تكون ما يشبه نطاقا تتجمع به القطعان كل مساء. وليست الخيام مساكن للرحل فحسب، بل أن بعض المستقرّين الذين يملكون الدور يفضّلون أن يعيشوا في الصيف تحت الخيام، لأنها أكثر اعتدالا في الليل وأسهل في حمايتها من الحشرات الضارة بها.

انتشرت هذه الخيام متأخرة عند البربر وكان اتخاذهم لها بعد الفتح الإسلامي على الخصوص، اقتداء بالفاتحين. ففي القرن الثامن للميلاد كان عدد كبير منهم لديهم خيام شبيهة بخيام العرب، ولكن يحتمل أن البعض منهم كانت خيام قبل هذا العهد وترجع إلى عهود قديمة جدا. فالشاعر الإفريقي كوريبوس Corripus ذكر قبل ذلك بقرنين وفي عدة

مناسبات، وجود الخيام Tentoria عند الأهالي الذين كانوا يحاربون البيزنطيين كما كانت لديهم الجمال كذلك وهي حيوانات كانت نادرة الوجود في بلاد البربر لغاية الثالث ميلادي وقبل هذا التاريخ كانت مستخدمة بكثرة في جنوب هذه المنطقة في عهد الإمبراطورية السفلى، ومن المعتاد أن الخيام تصنع من وبر الجمال، كما أن الجمال على الخصوص هي المستعملة في حملها لأن الخيام في العادة أثقل من أن تحملها دواب أخرى. من حيث المادة والحجم فإن الخيمات التي تحدث عنها كوريبوس يمكن أنها أشبهت التي حملها الجمالون العرب من المشرق في القرن السابع الميلادي، ولكن هذا ليس أمرا أكيد، إذ يمكن أيضا أن نفترض أن هذه المأوي كانت مصنوعة على نمط الخيام التي كانت تستعملها الجيوش البيزنطية.

وهناك خيام صغيرة من الجلد مشدودة بأوتاد خشبية شبيهة بتلك التي لا يزال الطوارق يستعملونها حتى اليوم. فالخيمة التارقية تعدّ بمثابة السكن العائلي التي يلجأ إليها حين تهب الرياح الرملية الهوجاء وخلال الظروف المناخية القاصية من قرّ وحرارة شديدين. ويبدو أنها استعملت عند الأفارقة منذ عهود قديمة وبعيدة .

ولا شك أن هذه هي خيام الجلد التي كان يملكها شعب أو قبائل المشاوشا Maschaoucha الذين قام المصريون بمحاربتهم في عهد الأسرة 19، وربما أنها أيضا هي مأوى بعض العشائر التي سمّاها بعض الكتاب المتأخرين عن العهد المسيحي باسم السكينيت Scenites. والجدير بالذكر أن لفظ سكينيت اليوناني لا يعني الخيمة بالتأكيد وإنما أطلق على الأكواخ الثابتة والمتنقلة.

ويحتمل أن بعضا من الأهالي قد اتّخذوا الخيمة في حملاتهم الحربية، على غرار الجيوش الرومانية التي كانوا يحاربونها أو يحاربون معها وعلى الخصوص منهم القادة الكبار والأمراء والملوك. وبهذا فخيمة ماسنيسا وخيمة نابدلسا مساعد يوغرطة لا بد أنهما لم تكونا مأوى بئيسة شبيهة بتلك التي يستخدمها الرحّل.

أمّا النوع الأهم من هذه المساكن الثابتة والمتنقلة ذات الطبيعة العضوية والمتمثلة في الهيئات الخشبية وباقي المكونات النباتية، فكثيرا ما جرى ذكرها منذ القرن الخامس ق.م إلى غاية السادس الميلادي. وكانت تصنع خصيصا من المواد النباتية مثل نبات البرواق Asphodèles (الصورة 1) والأسل (السمّار) Jonc ((Juncus effusus (الصورة 2) والبرواق المشبّك بالسمّار ومن القصب وتبن الحصاد.

الصورة 1: نبات البروق Asphodele. (تصوير م. زرارقة)

الصورة 2: نبات السمّار((Juncus effusus. (تصوير م. زرارقة)

بخصوص تسمية المساكن المتنقلة، استعمل الإغريق واللاتينيون أحيانا ألفاظا مبهمة لها معنى الدار، والكوخ، وعند كوريبوس نعثر على لفظ كناي Cannae الذي يدل على المادة التي صنعت منها وهو القصب. وهذا الشاعر يعارض بين كناي عند الأهالي وبين تنتوريا التي عند الجيوش البيزنطية.

لكننا نعثر أكثر من ذلك عند اللاتينيين على لفظ لا يستعملونه إلاّ للدلالة على مساكن الأفارقة. وهذا اللفظ يرد دائما بالجمع، وعلى صيغتين هما مغاليا Magalia التي أطلقت على مساكن الأحياء الفقيرة بمدينة قرطاجة البونيقية، وهو اسم قريب الشبه بـ مباليا Mapalia الذي قد يكتب أيضا بـ Mappalia. ولا شك أن الأمر يتعلـق بمجرد اختلاف في الكتابـة. و Mapalia هو الأكثر استعمالا، واللفظ اغريقي لا شك فيه. ومن الكتاب القدامى من يبدو أنه يعتقد بأنّ له أصلا أهليا، ويرى سرفيوس Servius بأنه لفظ بوني.

هذا النوع من المساكن، يدرجه شنيتي (م.ب) ضمن المسكن المحلي، حيث يرى بأن الإنسان المغربي (الليبي) قد احتمى في بداية الأمر من قساوة الطبيعة وضراوة الحيوانات البرية بمساكن بدائية أقام بناءها من عيدان وجعل سقفها بالعشب الجاف أو الهشيم.

وقد أطلق اللاتينيون كذلك لفظ مباليا على مساكن المستقرين الأفارقة، لأن هذه المساكن التي يأوي إليها الفقراء لابد أنها مثل المباليات المتنقلة، كانت مصنوعة من المواد النباتية على الخصوص.

وهنا يطرح قزال تساؤل منطقي عن معنى لفظ مباليا، الذي يعني بصفة عامة مساكن بنيت على هذا النحو سواء أكانت ثابتة أو متنقلة، وقد ترجم هذا المصطلح بعبارة «قربي Gourbi» لكن Ch. Le coeur ناقش هذه الترجمة وقال بأنّ القربي هو سكن مستقر لا يتناسب مع النمط المعيشي الذي يمنحه الكتّاب القدامى لأصحاب المباليا من الرعاة النوميديين، فلمّا يتحدّث الرومان على البيوت المستقرّة في الأرض Chaumieres fixes، فيستعملون عبارة تيقوريوم Tigurium ، وهناك ألفاظا أخرى ليست مرتبطة بإفريقيا، فهناك لفظ إغريقي وهو باللاتينية Tiguria ولفظ نادر أخر Attegiae الذي استعمله جوفينال Juvénal أثناء الحديث عن الموريين، وهو لفظ ذو أصل مجهول عثر عليه في إحدى النقيشات اللاتينية بألمانيا.

ولا بد أن أكواخا ثابتة قد أقيمت منذ عهود قديمة جدا وتكون مع مرور الزمن قد صلحت لبعض المزارعين الذين كانوا يعيشون متفرقين في البوادي فالأسفوديل قوم يحتمل أنهم حملوا هذه التسمية بسبب أكواخ البرواق التي كانوا يسكنونها، وحسب ما يظهر فإنهم كانوا قبيلة بالشمال الغربي للقطر التونسي. غير أن هذه الجهة المتوفرة والمستقبلة لكميات معتبرة من تساقط الأمطار، لم تكن المساكن بها مباليات متنقلة أي مساكن الرحل. وكانت أكواخ مماثلة لهذه تأوي الجيوش التي ترجع لمعسكراتها حين تتوقف العمليات الحربية. أين ذكر بوليب Polybe بأن جيوش سيفاكس كانت تعسكر في خيام من القصب والأوراق.

وفي فترات ليست بالبعيدة، حيث يتحدث ابن خلدون عن إحدى القبائل التي كانت تقيم ما بين تلمسان وفاس إبّان الفتح الإسلامي وهي قبيلة مثغارة، كانت تقطن في سكنات ثابتة مصنوعة من النباتات المتشابكة.

هذه كانت هي الأكواخ التي ارتضاها كثير من الأفارقة خلال الزمن والقرون أين بقيت متداولة ومستعملة إلى زمن ليس ببعيد وعيّنات منها مازالت متواجدة في يومنا هذا وهي

أكواخ (نوالات) gourbis تتكون جدرانها من القصب ومن الأغصان المشبّكة والأعواد الليّنة، وسقفها أيضا من المادة النباتية والتي تكون من نبات الدّيس أو من تبن الحصاد. فهي مساكن بحجرة فريدة، وليس بها سوى فتحة واحدة ضيّقة هي الباب. ولا أسهل من بناء هذه الأكواخ حينما تتوفر المواد الأولية.

وإذا أصيبت كثيرا من التلاشي، وإذا الحشرات جعلتها لا تطاق حقيقة، فإنها تترك وتحمل أعمدتها التي كانت تحمل السقف ولا تزال صالحة، ثم تقام نوالة جديدة قريبة أو بعيدة من تلك القديمة. وتطلى الجدران بطلاء من التربة الطينية المخلوطة غالبا بروث الأبقار وذلك نافع يقي من البرد ومن أشعة الشمس الحارة وأحيانا أخرى تطلى من الداخل بمادة القطران وهي مادة مطهرة تقضي على تجمّع الحشرات على الهياكل الخشبية من الركائز العمودية المعروفة بالتاقيدا Taguida والعوارض الأفقية المسماة بالقنطاس Guentas .

ويحتمل أن هذه الطريقة المستعملة بكثرة في طمس الشقوق، كانت مستعملة منذ عهد بعيد بحكم أجدادنا المباشرين لم يخترعوا ولم يبتكروا هذه التقنيات والهيئات السكنية، بل ورثوها عن آبائهم وأجدادهم فتعدّ بمثابة إرث معماري منقول من الأسلاف وتعود إلى عصور ضاربة في عمق التاريخ. (الصورة 3)

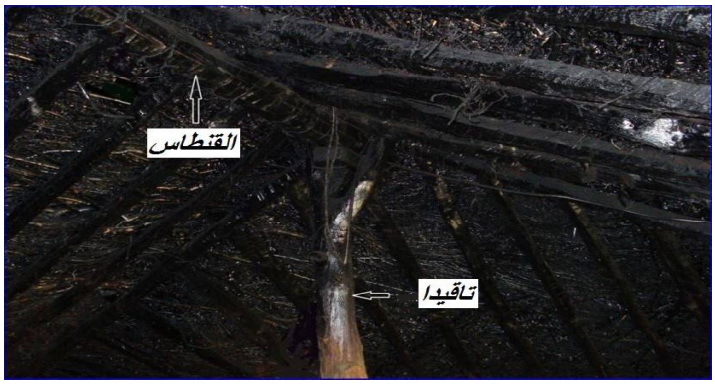

الصورة 3: كوخ خشبي مطلي بالقطران. (تصوير م. زرارقة)

أمّا عن أشكالها فإن جل الأكواخ الحديثة ذات شكل مستطيل بسقف مسنّم، غير أنّ الشكل المستدير ذو السقف المخروطي يوجد بالمغرب الأقصى وفي منطقة طرابلس، وهو بهذه المناطق من أصل سوداني. ونجده بعيدا إلى الشمال بوسط القطر التونسي. وفي بلاد القبائل الكبرى يستعمل الشكل الدائري ليس للسكن كون المساكن من الحجر، إنما هو لخزن

التبن وبدون شك أن بربر هذه الأرض لم يستعيروه من السودان[1].

منذ النيوليتي بنيت الأكواخ المستديرة في عدة مناطق من حوض البحر الأبيض المتوسط، وفي أوروبا الوسطى والغربية. وربما مثل ذلك قد حدث بشمال إفريقيا. فالرومان عرفوا بهذه الأرض مباليات لها هذا الشكل المستدير، وهو ما ذكره كاتون القديم Caton l'ancien [2]والقديس جيروم Saint Jérôme الذي شبهها بالأفران. والحديث هنا يعني المباليات الثابتة. ولكن البوادي الإفريقية عرفت أيضا، حسب شهادة سالوست أكواخ ممدودة الشكل بسقف له جوانب منحنية. فكانت تشبه هيكل سفينة مقلوبة.هذا الشكل الممدود والمتطاول هو الذي غلب في الاستعمال بسقف مسنم. وحتى في بعض الجهات فإن الجهة الجانبية للسقف يذكرنا بالقسم الغاطس في الماء من هيكل السفينة[3].(الصورة 4)

الصورة 4: سكنات ممدودة وذات شكل سفن مقلوبة من الظفائر بقرية دازا بـالتبستي[4]

إن الأكواخ التي من المواد النباتية تحدق بها مخاطر كبيرة، إذ يمكن أن تكون طعمة سهلة وسريعة للنيران التي إذ دفعت بها الرياح خلال مجموعات المساكن، فإنها تحدث الأضرار في وقت قليل. وفوق ذلك فإن هذه الأكواخ ذات جدران رقيقة لا تكفي للوقاية من البرد والحر.

3 - المساكن المركّبة:

انتشار الهيئات السكنية المزدوجة التركيبة عضوية وحجرية فهي حسب رأينا كانت سائدة عند كل أصحاب المعالم الجنائزية المنتشرة في شكل مجموعات صغيرة أو معزولة

والواقعة على أراضي ومناطق تبعد بكثير عن السلاسل الجبلية والجبال الحصينة طبيعيا التي قد يلجأ إليها خلال الشعور بالخطر، وبهذا نعتقد بأن أصحابها سكنوا ودفنوا موتاهم في فترة كان يسود فيها الهدوء والسلم، ومن المرجّح أن تكون سابقة للفترة الرومانية، كون العديد من هيأت أخرى نجدها مرتبطة جغرافيا مع المعالم الجنائزية وكأنّ اختيار موقع المقابر سبقه اختيار مكان السكن كما هو الحال في مواقع تيركابين، ايشوقان، طبطابة وتيساليا المتربّعة على تضاريس منيعة الذي توفّر وتضمن أمن وسلامة السكّان وهذا ما ألمسناه في أرض الواقع.

إنّ مسألة وجود هيئات سكنيّة صلبة متزامنة والمخلّفات الجنائزية الميغاليثية وشبه الميغاليثيّة وردت في تقرير M.T. Hamy سنة 1904 أين يعتقد بوجود في إحدى التجمّعات الجنائزية للمنطقة الشمالية الغربية لموقع هنشير لحجر بالنفيضة في تونس، على هيئات في حالة ركام، تعيّن له بأنّها تمثّل بقايا مدينة الأحياء المجاورة لمدينة الموتى، ويقول بأنه لا يمكنني الرؤية بوضوح لبقايا الجدران والغرف والأبراج، والتي فهمتها لاحقا بعد معاينتي لأطلال أخرى أقلّ ضررا، وهي أثار لبلدة تحيط بمختلف جهات هنشير لحجر[5].

بقايا جدران الهيئات السكنية والمتمثّلة في نموذجين، إحداها عبارة عن ما تبقّى من الأجزاء السفلية ذات النظام المزدوج بمعنى كل جدار مساره متكوّن من صخور كبيرة نوعا ما يملأ ما بينهما بحجارة صغيرة التي نعتقد بأنها ناتجة من شظايا عمليّات التشذيب. قد يكون علو هذه الجدران قبل الانهيار أو الهدم قصد عمليات إعادة استعمال الحجارة، يصل إلى غاية السقف كما هو الحال في البيوت التي زالت بشكل محسوس وسريع ابتداء من السبعينيات من القرن الماضي وما بقي منها سوى عيّنات نادرة في المشاتي والبيوت المعزولة في الرّيف والتي حوّل جلّها كـ «زريبات» للحيوانات (أنظر الصورتين 5، 6).

الصورة 5: كوخ ذو جدران حجرية وسقف من الخشب والسمّار بالطارف.
(تصوير م. زرارقة)

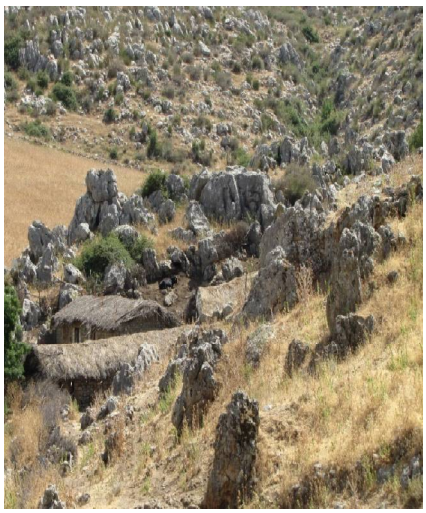

الصورة 6: أكواخ حجرية وعضوية مموّهة في وسط صخري بجبل الطاية.
(تصوير م. زرارقة)

أما النموذج الثاني فقد يكمن في بناء جدران تصل إلى مستوى معيّن فوق سطح الأرض ويبنى ما تبقّى من علو بواسطة الطّوب تفاديا لتعرّض هذه المادّة الطينية والترابية مع السطح لعزلها عن الرطوبة ومجاري مياه الأمطار، هذه الطريقة مازالت أثارها مرئية في بعض البيوت الأوراسية وغيرها وهي مناطق ذات مناخ مماثل أو متقارب بمناخ الشرق الجزائري. وخير مثال على هذا النمط، عثرت عليه بمقبرة جبل مزيلة الميغاليثية حيث تنتشر العديد من الجدران من النظام المزدوج البارزة فوق سطح الأرض في أماكن مرتفعة تتخلّلها منحدرات وشعاب عميقة، بعضها له مسارات طويلة نوعا ما تنقطع تارة لتعود في البروز في أماكن أخرى والبعض الآخر يشكل حلقات دائرية قد تكون لحويطات الحيوانات انهارت وانجرفت منها العديد من الصخور نحو الأسفل والتي تبرز مدى ارتفاع هذه الهيئات في الأصل (الصورتين 7، 8)

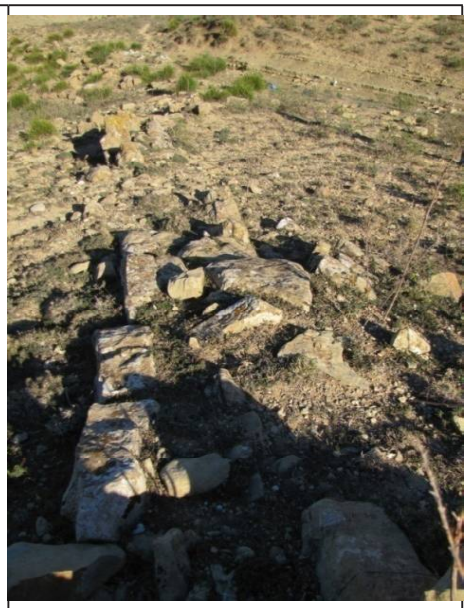

الصورة 7: بقايا جدران من النظام المزدوج بجبل مزيلا. (تصوير م. زرارقة)

الصورة 8: جانب من الحويطة الحجرية بجبل مزيلا. (تصوير م. زرارقة)

عدا المعالم الجنائزية، عاين الرائد مومني بقايا مختلف الهيئات الأخرى بالمنطقة، أين جعل مقاربة ما بين البنايات المنجزة من طرف السكّان المحليّين للقرن الماضي بتلك المتزامنة والفترات القديمة والخاصّة بالسكّان البربر. فيرى بأنّ هناك تشابه واضح في المخطّط العام للهيئات السكنية وكذا في تركيبة الجدران.

السكنات الحالية حسب حدّ قوله (التي ترجع إلى نهاية القرن التاسع عشر) فهي مطابقة للقديمة حيث يسبقها فضاء «حوش» مستطيل مبني بجدار ذو هيئة مستطيلة الشكل مرصوص بحجارة عديمة الملاط يقدّر علوّه ما بين 0.80 م. و1.00 م.، بداخله كانت تجمّع الحيوانات خلال الليل، وفي إحدى زوايا هذا الفضاء يوجد سكن صغير للأشخاص وهو عبارة عن غرفة بسيطة ذات شكل مستطيل مغطّاة بالقش Chaume والقصب، وهذا التخطيط نجده بعينه على جميع المخلّفات ذات التركيبة الثخنة المتربّعة في سهل الهوارة، نجدها واضحة على السطح بمقادير جد كبيرة ومركّبة بكيفية جيّدة. فهذا المثال يعود لمشاتي واقعة ما بين ربوات لوساليت بأم البواقي وغيرها من الأماكن المنتشرة بالمنطقة.

أمّا عن تركيبة الجدران، فهي مبنية بواسطة حجارة مرصوصة من دون ملاط، فهي على

النمط القديم، عبارة عن خطوط مزدوجة من صخور كبيرة مغروسة بعمق في الأرض، جاعلة فراغ ما بينها يتراوح ما بين 0,50 م. و0.60 م. والذي يملأ فيما بعد بالحجارة، هذه الجدران كثيرة العدد في المنطقة وخاصة بالسهل المحصور ما بين عين الكرشة، عين الفكرون، القريون وربوات لوساليت، فبقايا هذه الجدران ترسم في الأرض مساحات مستطيلة والتي هي حتما فضاءات لحيوانات السكّان[6].

وحسب الأبحاث المتقدّمة في هذا المجال، والتي نعتمد فبها على تقرير البعثة التونسية الإسبانية المنجزة في السنوات العشرة الأخيرة على موقع ألتيبورّوس Althiburos، أين عثر على آثار وبقايا سكنات هذه الفترة متناثرة هنا وهناك بسبب إعادة استعمال الموقع لفترات زمنية لاحقة ترجع للفترة الرومانية إلى غاية الفترة الإسلامية الوسيطة

ومن ضمن ما عثر عليه في الطبقات العميقة للموقع تمّ تفسيره بوجود ثلاث حقب مدرجة في الفترة النوميدية، قسّمها الفريقان[7] إلى :

- الحقبة النوميدية القديمة، وتعود على الأقل إلى القرن التاسع ق.م لتتواصل إلى غاية القرن الثامن أو بداية السابع ق.م وهذا بناءا على تأريخات بالكاربون 14 أجريت على عيّنات من الفحم والعظام استخرجت من الوحدات الطبقية US 290432 بتأريخ يتراوح ما بين 820 و1000 ق.م، US 29O433 بتأريخ يتراوح ما بين 840 و1020 ق.م وأخيرا US 290438 بتأريخ يتراوح ما بين 810 و1000 ق.م.
- الحقبة النوميدية الوسيطة، وتنحصر مع أقصى نهاية القرن السابع ق.م إلى غاية نهاية القرن الخامس أو بداية الرابع ق.م ممثّلة في طبقة رقيقة من الترسّبات الرمادية تحتوي على بقايا عضويّة للبقول الجافة وشقفة لكأس coupe قرطاجي ذو بطانة حمراء ذات كتف على الجانبcarené وحافة مرتفعة بالإضافة إلى شقف لأنفورة قرطاجية أيضا ذات شكل بيضوي وقاعدة لقدم.
- الحقبة النوميدية الحديثة، وتمتد من القرن الرابع ق.م إلى غاية بداية فترة الأمبراطورية الرومانية. تميّزها وفرة الفخّريات المستوردة من السواحل التونسية وأهمها قرطاجة بوجه الخصوص ونادرا ما تكون من اليونان أو ايطاليا.

خاتمة:

بغض النظر عن الملاحظات المستنتجة من المعاينات الميدانية لمختلف البقايا المادية، والتحليل الوصفي للوحدات الستراتيغرافية المتمثّلة في أثار الأسس والجدران، والتي استنتجنا بأنّها تعود إلى بقايا هيئات سكنية ذات صلة بالمعالم الجنائزية الميغاليثية وشبه الميغاليثية. تبقى التنقيبات الأثرية وحدها الجديرة بتسليط الأضواء على المعرفة أكثر بما قد تكتنزه طبقات هذه الهيئات السكنية المتطرّق إليها في هذا البحث من معطيات تاريخية ومعمارية وفنيّة وكذا مختلف جوانب الحياة اليومية.

هوامش البحث:

1. - CAMPS G., Aux origines de la Berbèrie, monuments et rites funéraires protohistoriques de l'Afrique du nord. A.M.G., paris. 1961, P. 51.
2. -GSELL S., Histoire ancienne de l'Afrique du nord. T. V., Paris, 1927, p.213.
3. -GSELL S., Op. Cit. P. 213.
4. - IBID.., P.215.-
5. -IBID. P. 215.
6. -IBID P. 216.
7. -IBID., P.216217-.
8. -IBID., P.218.
9. - شنيتي محمد البشير، تطور المسكن الريفي في شمال إفريقيا قديما. دراسات إنسانية، كلية العلوم الإنسانية، العدد 01، جامعة الجزائر، 2001، ص.14.
10. -شنيتي محمّد البشير. نفسه ص.14.
11. -Gobert E.G., Les grains d›enfilage en test d'œuf d›autruche, Rev. Tun.T. XL, 1938, P.343.
12. -CIL XIII N° 6054.
13. -Polybe XIV, 1,7
14. -IBN KHALDOUN, Histoire des Berbères, traduction de Slane, I, 2003, P. 237
15. -GSELL S., Op. Cit. P. 222.
16. -MAPALIA vocantur ubi habitant, ea quasi cohortes rotandae sunt.
17. -GSELL S., Op. Cit., P.222223-.

18. -LE CŒUR ch., Les mapalia Numides et leur survivance au Sahara. Hespéris, T. 24, 1937, P.31.
19. -HAMY M.T., Cistes et nécropoles Berberes de l'Enfida, Tunisie moyenne. Etude ethnographique et archéologique. B.G.H.D., N°1. 1904, P.51
20. - Cdt MAUMENE., Les monuments mégalithiques des hauts plateaux de la province de Constantine. Rev. Arch., T. XXXIX. 1901, PP. 2627-.
21. -KALLALA N. et SANMARTI J., ALTHIBUROS I, La fouille dans l'aire du capitole et dans la nécropole méridionale, Documenta18, 2011, P. 3133-.